المحاضرة الأولى
العلاقات الجزائرية البرتغالية 1

كان للجزائر بحكم موقعها الجغرافي المطل على البحر المتوسط علاقات مع مختلف الدول الأوربية الكبيرة منها والصغيرة خلال الفترة العثمانية ، ومن بينها البرتغال التي كانت من أوائل الدول الأوربية التي حققت وحدتها القومية ، وتطلعت إلى الاستعمار مع بداية العصر الحديث . وقد تميزت هذه العلاقات في بدايتها بمحاولات التوسع البرتغالي على اللأراضي الجزائرية في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر . لكن تراجع البرتغال الاستعماري بسبب النافسة الأوربية لها ، وخضوعها لبعض الوقت للنفوذ الأسباني ، قد جعل احتكاك الجزائر مع هذا البلد يقل ، وكان لقرارات مؤتمر توردسيلاس في أواخر القرن الخامس عشر دورا في هذا التباعد . غير أن الاشتباكات بين بحارة البلدين ظل قائما وخاصة في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر . وقد سعت البرتغال إلى أبرام معاهدة مع الجزائر من أجل إنهاء حالة التوتر السائدة في البحر، وقد توجت هذه المساعي بإبرام كعاهدة سنة 1813. وللإلمام بأحداث العلاقات الجزائرية البرتغالية خلال الفترة الحديثة ارتأيت أن أتطرق إلى المحاور الرئيسية التالية: نبذة عن دولة البرتغال في العصر الحديث، نماذج من المواجهات الحربية بين البلدين خلال الفترة الحديثة، مسألة الأسرى البرتغاليين في الجزائر وتحريرهم، هدايا ملوك البرتغال إلى دايات الجزائر. معاهدات السلام بين البلدين.

1- نبذة عن دولة البرتغال مع بداية العصر الحديث:

حكمت البرتغال منذ نشأتها سنة 1143 إلى نهاية العهد الملكي سنة 1910 أربعة أسر هي كما يلي: أسرة بورغندي (Bourgogne) (1143- 1383)، أسرة أفيس (Aviz) (1385-1581) ،أسرة هابسبورغ (Habsbourg) ،(1581-1640)أسرة براغانزا (Braganza) (1640-1910) . وتعد البرتغال من أوائل الدول الأوربية التي حققت وحدتها القومية في بداية العصر الحديث. فبعدما اعتلت عرش البرتغال عائلة أفيز (Aviz) تمكنت هذه الدولة من تأمين استقلالها بعد انتصارها على القوات القشتالية، وعقد تحالف مع انكلترا. استمرت هذه العائلة تحكم البرتغال إلى سنة 1580حيث أصبح الملك الإسباني فيليب الثاني ملكا على البرتغال بعدما انقرضت عائلة أفيز، إثر مقتل الملك البرتغالي سيباستياو الأول (Sebastião I) (1557-1578) في معركة الملوك الثلاثة بالقرب من مدينة القصر الكبير بشمال المغرب في 4 أوت 1578.

وقد اشتهر البرتغاليون بنشاطهم البحري خلال عصر الكشوفات الجغرافية مستفيدين من التطورات التي حدثت في علم الخرائط وتقنيات الملاحة. فكان التجار وصيادو السمك البرتغاليين قد أبحروا بعيدا عن موطنهم في المحيط الأطلسي قبل القرن الخامس عشر الميلادي، وهذا ما أدى بدولة البرتغال أن تقوم بسلسلة من المغامرات انتهت بكشف العديد من مناطق جديدة، وقد ساعد على هذا النجاح وفرة أدوات الملاحة والسفن المتطورة والاهتمام بعلم الجغرافيا، وبرز اسم هنري الملاح ابن الملك جواو الأول، كشخصية قيادية في بروز البرتغال، إذ أسهمت دراساته في خبرات البرتغاليين البحرية، وكان يشجع ويدعم

كثيرًا من الاكتشافات، وقد شارك في عدة حروب ضد بلاد المغرب، فقد نجح في احتلال مدينة سبتة سنة 1415، غير أنه فشل في احتلال مدينة طنجة.

وصل البحارة البرتغاليون إلى جزر ماديرا سنة 1419م والأزور سنة 1431م. وعند وفاة هنري الملاح سنة 1460م، كان البرتغاليون قد اكتشفوا الساحل الإفريقي الغربي وتوغلوا إلى الجنوب حيث وصلوا إلى ما يسمى اليوم سيراليون. قام البرتغاليون بفتح وتنصير سكان المناطق الساحلية لإفريقيا الغربية، ثم وامتدوا توسعهم على طول الشاطئ الغربي حتى ووصلوا إلى مصب نهر السنغال وأسسوا به مركزا تجاريا يحرسه حصن في جزيرة أراغون بالقرب من الرأس الأبيض ومنه أخذوا يتاجرون بالذهب والرقيق. واستطاعوا في سنة 1455 أن يحصلوا على امتياز بابوي يخول لهم الانتقال إلى هذه الأصقاع والمتاجرة فيها. وفي سنة 1481 أسس البرتغاليون في خليج غينيا قصر المينا، وكانوا في هذا الموقع البحري يشترون الذهب من السكان المحليين الذين كانوا يجمعونه من الأنهار المجاورة له، وتوالت إثر ذلك الحملات والرحلات والاكتشافات،إلى أن تم التوصل إلى اكتشاف الطريق نحو الهند والعالم الجديد).

وفي نفس الوقت كانت أسبانيا تسعى من جانبها أن تصل إلى الهند عن طريق الاتجاه نحو الغرب، وسرعان ما نشب الصراع بين البلدين، إذ كانت كل دولة تسعى إلى تأمين الأراضي التي اكتشفتها واحتلتها، فتوسط البابا اسكندر السادس، الذي كان أساسا لمعاهدة توردیسلاس (Tordersillas) سنة 1494 التي قضت بأن تستولي البرتغال على كل المكتشف شرقي خط وهمي يرسم بطول المحيط الأطلسي على بعد 370 ميلاً غربي جزر الرأس الأخضر (يقع الآن على °46 و 37° غربا). في حين يكون لإسبانيا كل ما يقع غربي هذا الخط. لذلك، كان عمه الأكبر الوحيد الذي لا يزال على قيد الحياة هو التاج: كان دي.هنريكي، ابن دي مانويل الأول وشقيق الملك السابق د. مندوب. كما عمل في معظم حياته كمحقق عام للبرتغال(Inquisidor General).كان خطر انقراض السلالة الحاكمة بعد موتها الوشيك واضحًا للجميع.

لقد تم ضم البرتغال من قبل التاج الإسباني في 13 جوان 1580، نتيجة لأزمة السلالات البرتغالية، حيث لم يكن للدون سيباستياو الأول(Sebastião I) وريثا من الأبناء ولا الإخوة. باستثناء عمه الكاردينال هنريكي الأول(Henrique I)، الذي تولى عرش البرتغال، وقد حكم خلال الفترة ما بين 28 أوت 1578 و31 جانفي 1580. وقد أطلق عليه نعت الكاردينال الملك(Cardeal-Rei). توفي الكاردينال الملك بعد ذلك بعامين دون أحفاد، تاركًا عرش البرتغال غير مشغول، مما تسبب في أزمة سلالة أفيز.

استغل ملك إسبانيا فيليب الثاني الوضع، أوعز إلى دوق الألب le duc d'Albe واحتل البلاد نيابة عن ملك إسبانيا فيليب الثاني (1527-1598) . وقد عرف هذا الضم بمصطلح "الإتحاد الأيبيري" ("Unión Ibérica"، بالإسبانية؛ "União Ibérica" بالبرتغالية. استمرت البرتغال في الوجود بشكل قانوني كمملكة حين أصبح تاجا البرتغال وإسبانيا تحت تاج واحد للملك وهو فيليب الثاني ملك إسبانيا. ومع ذلك حافظت البرتغال على استقلالها وامتيازاتها وعدالتها وعملتها ومستعمراتها وأحيانًا سفرائها الخاصين، دون أن يتم ضمها إلى إسبانيا، استمر هذا الاتحاد لمدة ثمانين عامًا حتى (1640)،عندما استعاد النبلاء البرتغاليون استقلالهم. حيث تمكن النبلاء الصغار البرتغاليون في 1 ديسمبر 1640 من استعادة استقلال بلادهم وعينوا أحدا منهم يدعى جواو من عائلة براغانسا (Joao de

Bragança) على العرش. وتوج هذا في 15 ديسمبر تحت اسم جواو الرابع. وقد حظيت هذه الانتفاضة بدعم الكاردينال الفرنسي ريشيليو.وعندما سعى الإسبان استعادة نفوذهم في البرتغال، تلقت الأخيرة الدعم من الهولنديين والإنجليز، وتم الاعتراف باستقلال البرتغال في عام 1668.

2- نماذج من المواجهات البحرية بين والجزائريين البرتغاليين:

تعود مظاهر الصراع بين الجزائر والبرتغال إلى القرن الخامس وبداية القرن السادس، حينما قامت البرتغال بعدة عمليات عسكرية ضد المرسى الكبير ووهران عشر. فقد ذكر أحد الكتاب الأوربيين أن الملك جواو الأول قام بالاستيلاء على المرسى الكبير ووهران في 14 أوت 1415م. لكن مدينة وهران، تعرضت إلى العديد الهجمات قامت بها القوات العسكرية للدولة الزيانية، وتمكنت من تحريرها في عام 1437 وطرد القوات البرتغالية منها. وفي عام 1471 شن الملك البرتغالي ألفونسو الخامس(Afonso V)هجوما جديدا على المنطقة، وكانت مدينة وهران هي المستهدفة هذه المرة، لكن فترة الاحتلال لم تدم طويلا، إذ تعرضت المدينة إلى حصار محكم لمدة ست سنوات من طرف الجزائريين أجبرت القوات الغازية على الانسحاب من وهران سنة 1477. وذكر المؤرخ الجزائري عبد الرحمن الجلالي أن مدينة وهران قد احتلت مرتين من طرف البرتغال، كانت الأولى في سنة 1474، استمر وجودهم بها لمدة خمس سنوات. أما الثانية فقد امتدت بين (1487-1483). وحاول البرتغاليون مرة أخرى احتلال المرسى الكبير خلال سنة 1501، غير أنهم لم يتمكنوا من الفوز بها.

منذ أن تم تنصيب الدون جواو الرابع (João IV) سنة 1640بصفته ملك البرتغال الجديد، وحتى توقيع معاهدة الهدنة والافتداء مع الجزائر في عام 1810، ولمدة ما يقرب من قرنين من الزمن، وقعت اشتباكات بوتيرة أقل ما يقال عنها إنها كثيرة بين البرتغاليين والجزائريين. وقد أسفرت هذه الاشتباكات عن غارات متواصلة على الساحل البرتغالي قام بها البحارة الجزائريون أخذوا معهم أسرى وبضائع الذين تم افتداؤهم في وقت لاحق. وقد أدى بالبرتغال إلى إنشاء أساطيل للدفاع عن لساحلها البحري، والتي كانت تحرس الساحل البرتغالي، كما كانت ترافق السفن القادمة من الهند أو البرازيل إلى الموانئ البرتغالية. وتمكنت هذه السفن الحربية في بعض الأحيان من الاستيلاء على بعض سفن المغاربية ومنها الجزائرية، وفي أحيان أخرى كان الجزائريون يستولون على السفن البرتغالية وأعداد من الأسرى.

أما من الجانب الجزائري، فبعد عام 1600، ركزت البحرية الجزائرية، التي تم تجديدها بالكامل في تقنياتها، على المحيط الأطلسي 17. وتحول ميدان العمل تدريجياً من البحر الأبيض المتوسط إلى الغرب، بعد تحركات التجارة العالمية، بدأ البحارة الجزائريين في عبور المضيق بشكل متكرر من جبل طارق إلى المحيط الأطلسي. حيث اعتاد البحارة الجزائريون القيام بنشاطهم البحري في قادش(Cadiz)، كيب ساو فيسنتي (Cabo de São Vicente)، كيب فينيستيري(Cabo Finisterra)، جزر مادیرا(Madeira Islands)، لاغوس(Lagos) ، كابو دا روكا(Roca Cape)، جزر الكناري(Canary Islands) وجزر الأزور(Azores Islands) .وكانت بعض المدن الأحيان إلى مدن ساحلية برتغالية أخرى وعلى الخصوص لشبونة وبورتو. فمن المواجهات خلال القرن 18 نذكر أنه في بداية مارس 1714، هاجمت ثلاث سفن لبحارة جزائريين سفينة تجارية برتغالية كانت قادمة من

البرازيل وعلى متنها شحنة كبيرة من السكر متجهة إلى لشبونة بين س. ميغيل(S. Miguel S. Miguel) ولشبونة. بعد معركة استمرت ثماني ساعات، انسحب البحارة الجزائريون في النهاية ودخلت السفينة البرتغالية إلى تيخو (Tejo) ، ومع ذلك فقد نتج عن هذه المواجهة مقتل عشرين شخصًا من البرتغاليين وإصابات عديدة وأضرارًا للسفينة.

إن المعارك البحرية بين الجزائريين والبرتغاليين كانت تجري على الخصوص في النواحي القريبة من مضيق جبل طارق أو في الأطراف الشرقية للمحيط الأطلسي المحاذية الساحل الأوربي الإفريقي. وكانت تلك المجابهات قليلة الوقوع خلال القرن السابع عشر والثلثين الأولين من القرن الثامن عشر. لكنها عرفت تصعيدا خطيرا خلال الثلث الأخير من القرن الثامن عشر، والعقد الأول من القرن التاسع عشر، وخاصة بعد إبرام المعاهدة الجزائرية الأسبانية سنة 1786. ولا شك في أن ذلك يعود بالدرجة الأولى إلى رفض البرتغال دفع الضرائب. فقد تمكن البحارة الجزائريون من غنم ست عشرة سفينة برتغالية وأسر 118 أسيرا، بالإضافة إلى كميات معتبرة من السلع. ومن أجل الوقوف في وجه هذه الضربات المتتالية التي تعرضت لها البرتغال. أقدمت الحكومة البرتغالية على تشكيل أسطول لحماية المناطق الساحلية الحساسة من هجمات البحار الجزائريين .

وأوردت صحيفة " بريد أوربا" (Le Courier de l'Europe) الصادرة في لندن يوم 18 جويلية 1786، خبر استيلاء بحارة جزائريين بعض السفن البرتغالية عند سواحل لشبونة فقالت: << تم الاستيلاء على سفينة كبيرة محملة بالثمار قادمة من البرازيل، في نهاية الشهر الماضي[ماي] على بعد حوالي 20 فرسخا غرب صخور لشبونة، من قبل القراصنة الجزائريين ، وبعد اشتباك قتل فيه العديد من الجانبين. تم إرسال هذه السفينة إلى الجزائر. وفي اليوم التالي واجه نفس القرصان أسطولا تجاريا ترافقه سفينة حربية برتغالية مكونة من 50 مدفعا. وتعرض الأخير للهزيمة على يد القراصنة الذين استولوا على سفينتين من هذه القافلة>>.

وكانت البرتغال ترسل من حين لآخر سفنا حربية من أجل حماية سفنها والتصدي للبحارة الجزائريين الذين يستهدفون السفن البرتغالية سواء في البحر المتوسط أو المحيط الأطلسي. وفي هذا السياق أوردت نفس الصحيفة صحيفة الصادرة يوم 25 أوت 1786، خبرا من لشبونة عرضت فيه دخول إحدى الفرق من السفن الحربية إلى ميناء لشبونة بعد قضائها عدة أيام في المهمة المذكورة .

وفي نفس المهمة ورد تقرير مقتضب مؤرخ في 18 جويلية 1786، إلى صحيفة "بريد أوربا" من مدينة طنجة في عددها الصادر يوم 26 سبتمبر 1786، مفاده ظهور ثلاث سفن برتغالية من أجل التصدي للبحارة الجزائريين، هذا نصه: << ظهر للتو في هذه الأجزاء أسطول برتغالي مكون من ثلاث سفن، تحت قيادة دون جوزيف دي ميلو (don Joseph de Mello). ويجب تعزيزها بثلاث سفن أخرى، وتهدف إلى الإبحار في البحر الأبيض المتوسط، لقمع قراصنة الجزائر، إن أمكن>>.

وفي أواخر عام 1786 وقعت حادثة حرق البرتغاليين لسفينة جزائرية في جبل طارق (3سبتمبر1786) وردود فعل الحاكم الإنكليزي في الإقليم. ذكرتها صحيفة "بريد أوربا" في ركن "أخبار لندن" (Bulletin de Londre) القار في الصحيفة. ففي عددها الصادر يوم 20 أكتوبر 1786 نشرت تقريرا عن القضية ذكرت فيه أحداث القصية التي جرت بين الفرقاطة البرتغالية تريتون (Triton) وسفينة جزائرية من نوع شباك (chebec) تحتوي

على 16 قطعة مدفع وطاقم مكون من 140 فردا في منطقة جبل طارق. فبعد أن غادرت السفينة الجزائرية الخليج في 3 سبتمبر، في الساعة الثامنة صباحًا، تعرضت إلى مطاردة من قبل فرقاطة برتغالية. ونظرا لشدة الرياح اضطر الجزائريون إلى العودة إلى الخليج، ودفعتهم التيارات، إلى النقطة الشمالية من الصخرة، حيث هاجمهم البرتغاليون أمام أنظار بطاريات المكان. هذا الصمت من جانب الإنجليز أجبر الجزائريين على ترك سفينتهم ، وهربوا على متن زوارق التجديف، إلى طرف البرزخ، حيث نزلوا وقضوا الليل. أمر قائد السرب البرتغالي دون جوفيف دي ميلو(don Jofeph de Mello)، بإضرام النار في الشباك الجزائري المهجور، فتم تحطيمه. وفي اليوم الموالي 4 سبتمبر واشتكى الجزائريون بمرارة لحكام الإقليم، من عدم حمايتهم من مدافع المكان، على الرغم من الضمانات التي قدمها لهم العميد البحري كروابي (Croaby) والكابتن ماركهام.(Markham)، واعتقدوا أنهم كانوا آمنين هناك. لذا أبلغ الجنرال إليوت (Elliot)[22] دون جوفيف دي ميلو الذي انتهك حرمة أراضي حكومته، لن يُسمح له ولا لأي من طاقم فرقاطته بالدخول إلى المدينة. ورد قائد السرب البرتغالي برسالة إلى حاكم جبل طارق مفادها أن الشباك الجزائري هو غنيمة جيدة، وأن الإنجليز تعاملوا مع الأمر بنفس الطريقة في عام 1758مع السفينة الفرنسية M.de la Clue، التي كانت تحت حماية الحصون البرتغالية، على ساحل مملكة الغارف (Algarve) في جنوب البرتغال، على مسافة قصيرة جدًا من اليابسة. وختم التقرير حديثه عن القصية بالقول: << ونأمل ألا تشهد هذه القضية المزيد من العواقب، وأن تتم تسويتها ودياً بين البلدين>>.

وأكملت الصحيفة الحديث عن قضية حرق السفينة الجزائرية من طرف البرتغاليين في عددها الصادر يوم 17 نوفمبر، وذلك في تقرير وصلها مدينة قادش الإسبانية بتاريخ 17 أكتوبر 1786. هذا نصه: << القضية التي هددت بحدوث قطيعة رسمية بين الإنجليز والجزائريين، انتهت للتو وديًا من خلال التضحية التي قدمها الأوائل [الإنكليز]. إن تدمير السفينة الجزائرية (الشباك) المكونة من 16 مدفعا وطاقما من 140 فردا، وهو ما تجرأت عليه الفرقاطة البرتغالية تريتون ونفذته في 3 سبتمبر تحت مدفع جبل طارق، دون أن يتدخل المكان، كما ذكرنا أعلاه. وكان الحاكم إليوت (Eliott)مريضًا، عندما ارتكب هذا العداء ضد سفينة، التي اعتقدت أنها آمنة تحت مدفع ميناء محايد: وبالتالي كان يجهل كل ما حدث في هذا الصدد: ولكن بعد أن تم إخباره، وجه أشد اللوم إلى السيد دي ميلو، لأنه انتهك أراضي حكومته: وعندما أراد في اليوم الرابع الذهاب إلى الشاطئ، جعله الجنرال الإنجليزي يعلن أنه لن يُسمح له ولا لأي من رجاله بالدخول إلى هناك بعد الآن: وعندها أبحر السيد ميلو مباشرةً إلى لشبونة. أما الجزائريون، فمن جانبهم، بعد أن فروا إلى البرزخ، ودخلوا جبل طارق في الرابع من الشهر الجاري (سبتمبر)، واشتكوا بصوت عالٍ من أنهم، إن لم يكونوا قد تعرضوا للخيانة، فقد حرموا على الأقل من الحماية التي كفلها لهم القانون الدولي: ووعدوا بأن دولتهم سوف ستنتقم باستنزاف من السفن البريطانية. شعر الجنرال إليوت بقوة مظالمهم، فاستقبلهم في البداية باستقبال ودي للغاية، وأرسل على الفور الفرقاطة، أبو الهول (Sphinx)، إلى إنجلترا. وقد أرسل الآن طاقم السفينة xebec إلى الجزائر العاصمة، على متن سفينة حربية إنجليزية، ومعهم مبلغ 16.000 بياستر)، لتقديمه إلى الداي كنوع من التعويض>>.

وأوردت صحيفة " بريد أوربا" (Le Courier de l’Europe) في عددها الصادر يوم 17 ديسمبر 1791، خبرا من لشبونة مؤرخا في 21 نوفمبر 1791، يتعرض إلى إشعار داي الجزائر الدول الأوربية إرسالهم الجزية في شكل مواد حربية، وإرسال البرتغال سفينة محملة بالبارود والبنادق والمدفعية: << نتيجة للإخطار الذي أرسله داي الجزائر إلى جميع القوى المسيحية، بأنه لن يتلقى الجزية بعد الآن إلا في شكل ذخائر حربية، أرسل له بلاطنا سفينة محملة بالبارود والبنادق والمدفعية. ألا ينبغي لكل القوى أن تتكاتف ضد هذا الأفريقي الذي يجرؤ على تسمية هداياه باسم الجزية، خاصة عندما يطالب بدفعها بآلات الموت؟>>.

وفي سنة 1793 نجحت الوساطة البريطانية في عقد هدنة بين الجزائر والبرتغال، لكنها لم تدم طويلا. فقد تجددت المواجهات البحرية بين الطرفين ابتداء من سنة 1796، وخاصة المواجهات العنيفة التي حدثت خلال سنوات 1799، 1802، 1803. وفي سنة 1799 قاد الرايس ابن تاباك (Ben Tabak)إحدى السفن من نوع الشبك، تمكن من احتجاز سفينة حربية برتغالية، وأسر تسعة وسبعين كانوا على ظهرها، بالإضافة إلى غنيمة قدرت بـ 385 29 فرنكا، جاء بهم إلى مدينة الجزائر يوم الجمعة 30 أوت 1799. وظلت هذه الحروب مستمرة إلى غاية سنة 1810. حيث كان الرايس حميدو قائد أغلب هذه العمليات.